التطوُّر التاريخيُّ للمُصطلَحات
دراسة تطبيقيَّة على مُصطلَح (النحو) في المعاجم العربيَّة

مُحمَّد أحمد البكري

مُلخَّص

تسعى الدراسةُ التي بين يدَيْك إلى تقديم منهجيَّة لتتبُّع تطوُّر المُصطلَحات في استعمالها التاريخيّ، وتأتي الدراسةُ في ستَّة محاورَ رئيسة تتضمَّنُ مُقدّمةً، وعرضًا يُميّزُ بين اللَّفْظ والمُصطلَح مع إسقاط ذلك على (النَّحْو)، ثُمَّ الحديث عن رَصْد التطوُّر التاريخيّ للمُصطلَحات وإجراءاته وأهمّيَّته وصعوباته مع اقتراح حَلٍّ للخروج من هذه الصعوبات، ثُمَّ الحديث عن التطوُّر التاريخيّ لمُصطلَح (النَّحْو) واقتراح عدَّة منهجيَّات لرصد تطوُّر هذا المُصطلَح، يليه البدء في تتبُّع تطوُّر المُصطلَح وفق منهجيَّة منَ المنهجيَّات التي اقترحَتْها الدراسة، وذلك من خلال تتبُّعه في المُعجَم العربيّ عبر ثلاث مراحل زمنيَّة، وأخيرًا تَعرضُ الدراسةُ لنتائجها.

١- مُقدِّمة

هذه دراسة اختَرْنا لها عُنوانَ (التطوُّر التاريخي للمُصطلَحات؛ دراسة تطبيقيَّة على مُصطلَح النحو في المعاجم العربيَّة)، لتَشمَلَ بذلك الحديثَ التنظيريَّ عن التطوُّر التاريخيّ للمُصطلَحات بشكلٍ عامٍّ والتطبيق على مُصطلَح (النَّحْو) بشكلٍ خاصٍّ.

تندرج هذه الدراسة ضمن إطار عِلْمَيْن؛ هما علم الصناعة المُصطلَحيَّة Terminography وعلم الصناعة المُعجَميَّة Lexicography، وينحصر مجال بحثها في جانب التطبيق تحديدًا في المعاجم العربيَّة خاصَّةً دون المصادر العربيَّة الأخرى. والغرض من هذه الدراسة هو مُحاوَلة وَضْع منهجيَّة لتتبُّع التطوُّر التاريخيّ للمُصطلَحات؛ خروجًا بوَضْع عدَّة أشكال للمُقارَبة التاريخيَّة لتتبُّع تطوُّر مُصطلَح (النَّحْو)، مع الشروع في التطبيق باستخدام شكلٍ من هذه الأشكال التي اقترحتها الدراسة.

وقد اتَّبَعَت الدراسةُ المنهجَ الوَصْفيَّ التحليليَّ، ومنهجُها العامُّ في ذلك:

١- عَرْض إشكاليَّات رصد التطوُّر التاريخيّ للمُصطلَحات بشكلٍ عامّ.
٢- اقتراح منهجيَّةٍ عامَّةٍ لحَلِّ هذه الإشكاليَّات عن طريق تضييق المساحات البحثيّة.
٣- اقتراح منهجيَّة خاصَّة مبنيَّة على سابقتها لتتبُّع تطوُّر مُصطلَح (النَّحْو) في المصادر العربيَّة.
٤- تتبُّع مُصطلَح (النَّحْو) في ضَوْء المنهجيَّة الخاصَّة المُقترَحة.
٥- الخروج بنتائج التتبُّع والاستقراء.

٢- اللَّفْظ والمُصطلَح: تنظير وتطبيق

٢-١- اللَّفْظ والمُصطلَح:

قبل أن نَشرُع في التطوُّر التاريخيّ للنَّحْو باعتباره مُصطلَحًا، ينبغي أن نُحدِّد أوَّلًا الفرقَ بين "اللَّفْظ والمُصطلَح" و"المعنى والمفهوم" تحديدًا تأسيسيًّا لدراستنا يُوضِّحُ ما بينهما من فَرْق، باعتبارهما القسمَيْن الكبيرَيْن اللَّذَيْن تتشكَّلُ منهما أيُّ لغة.

وسننطلقُ في تحديدنا هذا منَ التسليم بأنَّ اللُّغةَ مُتواضَعٌ عليها ومُتَّفَقٌ من قِبَل أهلها المُتكلِّمين بها، كما يقول ابنُ جنّيٍّ (٥٣٩٢): "أكثرُ أهل النَّظَر على أنَّ أصل اللُّغة إنَّما هو تواضُعٌ واصطلاحٌ؛ وذلك أنَّهم ذهبوا إلى أنَّ أصل اللُّغة لا بُدَّ فيه من التواضُع والاصطلاح"؛ أي الاتِّفاق.

٢-١-١- والألفاظُ بهذا اصطلاحٌ – اتِّفاقٌ – عامٌّ بين عموم المُتكلِّمين، مُتداوَلةٌ بينهم في الاستعمال دون تمييز أو تخصيص. أمَّا المُصطلَحاتُ؛ فهي اصطلاحٌ خاصٌّ بين فئةٍ منَ المُتكلِّمين نتيجةً لتميُّزها في الاستعمال بين هذه الفئة دون باقي الفئات.

٢-١-٢- واللَّفْظُ أو المُفرَدةُ إنَّما لها صورتان؛ الأولى هي اللَّفْظ الخارجيُّ (الدالُّ)، والثانية هي المعنى (المدلول). أمَّا المُصطلَحُ؛ فمُختلِفٌ

عن ذلك؛ إذ صورتاه هما (التسمية) و(المفهوم).

٢-١-٣- والعَلاقةُ بين الدالِّ والمدلول في الألفاظ إنَّما هي علاقةٌ اعتباطيَّةٌ كما يقول "دي سوسير"؛ بمعنى أنَّنا لا نستطيع إيجاد تفسير للعلاقة بين لفظ مثل (شجرة) وبين الشيء الخارجيِّ الذي يدلُّ عليه، وهي اعتباطيَّةٌ كذلك لأنَّ الشيءَ الواحدَ يُسمَّى بتسميات مُختلفة في جميع اللُّغات فضلًا عن تعدُّد دلالته داخل اللُّغة الواحدة. أمَّا المُصطلَحُ؛ فالعلاقة فيه بين التسمية والمفهوم تكون علاقةً واعيةً؛ حيث يكون المفهومُ ثابتًا أوَّلًا، ثُمَّ تأتي التسميةُ مبنيَّةً عليه؛ ما يعني بهذا إمكانيَّة تفسير أيِّ تسمية موضوعة لمفهوم ما، بخلاف ما نجد في اللَّفْظ.

٢-١-٤- كذلك فإنَّ اللَّفْظ دلالتُه غيرُ ثابتة لتعدُّدها في اللُّغة بتعدُّد السياق الواردة فيه لُغويًّا كان أم ثقافيًّا أم اجتماعيًّا، وبتبادُلها كذلك بين الحقيقة والمجاز. أمَّا المُصطلَحُ؛ فله مفهومٌ واحدٌ لا يتأثَّرُ بالسياق اللُّغويِّ أو الثقافيِّ أو الاجتماعيِّ أو المجازيِّ، ولا يتغيَّرُ ذلك المفهوم إلَّا بترحيل المُصطلَح من مجاله الأوَّل إلى مجالٍ آخَرَ لاستعماله بمفهوم جديد.

٢-١-٥- يندرج اللَّفظُ في النظام اللُّغويِّ على مُستوى الدلالة ضمن مجموعة منَ الألفاظ يتعالقُ معها يُطلَقُ عليها الحقل الدلاليّ، وهي التي تُكوِّنُ الحقول الدلاليَّة داخل المُعجَم العامِّ، بينما يندرجُ المُصطلَحُ في مجموعة من نوع آخَرَ تُسمَّى الحقل المفهوميّ، وهي التي تُكوِّنُ الحقول المفهوميَّة داخل المُعجَم المُصطلَحيِّ. نجد هذه الحقول المفهوميَّة في المعاجم المُصطلَحيَّة القائمة على ضمِّ المُصطلَحات بعضها إلى بعض داخل مجموعات منَ الأُسَر، وهي أقلُّ شيوعًا مُقارَنةً بمعاجم المُصطلَحات التي تعتمد ترتيبَ مُصطلَحاتها ترتيبًا ألفبائيًّا. ومنَ المعاجم الغربيَّة التي قامَتْ على ترتيب مفهوميٍّ: "Dictionnaire De Linguistique" و"Dictionnaire De Pragmatique".

٢-٢- لَفْظ (النَّحْو) ومُصطلَح (النَّحْو):

"والنَّحْوُ في الأصل مصدرٌ شائعٌ؛ أي: نَحَوْتُ نَحْوًا، كقولك: قصدتُ قَصْدًا، ثُمَّ خُصَّ به انتحاءُ هذا القبيل منَ العِلْم، كما أنَّ الفقْهَ في الأصل مصدرُ فَقِهْتُ الشيءَ؛ أي عرَفْتُهُ، ثُمَّ خُصَّ به عِلْمُ الشريعة منَ التحليل والتحريم، وكما أنَّ بيت الله – عزَّ وجلَّ – خُصَّ به الكعبةُ وإن كانت البيوتُ كُلُّها لله – عزَّ وجلَّ – قال ابنُ سيده: وله نظائرُ في قَصْر ما كان شائعًا في جنسه على أحد أنواعه" [ابن منظور: لسان العرب]

تجاذَبَ مفهومَ (النَّحْو) قديمًا – قبل أن يصير مُصطلَحًا مُستقرًّا عليه – عدَّةُ مُصطلَحات أخرى؛ هي (القواعدُ)، و(الإعراب) و(الكلام)، و(اللَّحْن)، و(المجاز)، و(عِلْم الخليل) قليلًا، و(العربيَّة)، و(عِلْم العربيَّة) أحيانًا، و(الأدب) أحيانًا أخرى. كما تجاذَبَ مُصطلَحَ (النَّحْو) قديمًا – قبل أن ينحصر في مجالٍ علميٍّ واحد – عدَّةُ مجالات لُغويَّة في الوقت نَفْسِه؛ حيث شمِلَ "مباحث النَّحْو syntax، والصَّرْف morphology، والأصوات phonetics، حتَّى استقرَّ في مرحلة مُتأخِّرة على مجال النَّحْو syntax فحَسْب". وما يُهِمُّنا من بين هذه المُصطلَحات هو مُصطلَح (النَّحْو) ودلالته التي كان عليها في اللُّغة العامَّة حين كان لفظًا، ومفهومه الذي جاء عليه في اللُّغة الخاصَّة بعد أن صار مُصطلَحًا.

٢-٢-١- لفظ (النَّحْو): ويأتي في اللُّغة ضمن مجموعة منَ الدلالات؛ من ذلك:

- القَصْد والجهة: ومثالُهُ: نحوتُ نحوَ البيت.
- المِثْل: ومثالُهُ: زيدٌ نحو عمرو.
- المقدار: ومثالُهُ: عندي نحو ألف.
- القِسْم: ومثالُهُ: هذا على خمسة أنحاء.
- البَعْض: ومثالُهُ: أكلتُ نحوَ السمكة.

وقد نظَمَ الداوودي سبعَ دلالات للنَّحْو جاءَتْ في قوله:

للنَّحْو سَبْعُ معانٍ قد أتَتْ لُغةً
جَمَعْتُها ضِمْنَ بَيْت مُفرَد كَمُلا
قَصْدٌ، ومِثْلٌ، ومقدارٌ، وناحيةٌ نَوْعٌ، وبَعْضٌ، وحَرْفٌ. فاحفَظِ المَثَلا

٢-٢-٢- مُصطلَح (النَّحْو):

أمَّا النَّحْو من الناحية الاصطلاحيَّة؛ فقد استقرَّ مفهومُه منذ زمن طويل على أنَّه "العِلْمُ بأصول يُعرَفُ بها أحوالُ أواخر الكَلِم العربيَّة إعرابًا وبناءً".

٣- التطوُّر التاريخيُّ للمُصطلَحات

٣-١- في التطوُّر التاريخيِّ للمُصطلَحات:

قلنا إنَّ المفهوم الخاصَّ بأيِّ مُصطلَح إنَّما ينشأ أوَّلًا ثُمَّ يظهر المُصطلَح من بعده،

ومن هنا فإنَّ نشوء المُصطلَح مُرتبِطٌ بنشوء العِلْم، وكذلك تطوُّر المُصطلَح مرهونٌ بتطوُّر العِلْم أوَّلًا؛ فالمُصطلَحاتُ مرآةٌ للعُلوم ومفاتيحُ لها. "وهو المعنى عَيْنُه الذي صدَّرَ به جورج مونان غلاف كتاب "مُعجَم اللسانيَّات" عندما كتَبَ عليه: المُصطلَحُ المثاليُّ يفترضُ اكتمالَ العِلْم".

فالعِلْمُ – أيُّ عِلْم – منذ نشأته؛ طُفولته، وحتَّى اكتمالِه ونضجه، يَمُرُّ بعدَّة مراحلَ منَ التغيُّرات على المُستوى التنظيريِّ له، وهذه التغيُّرات التنظيريَّة يَتبَعُها لا شَكَّ تغيُّرٌ في المفهوم الشامل للعِلْم؛ ما يستدعي انتقالَ المُصطلَح من مرحلة مفهوميَّة مُتأخِّرة إلى مرحلة مفهوميَّة أكثر تطوُّرًا قائمةً على التصوُّر الأخير الذي ارتقى إليه العِلْم، ومثال ذلك مفهوم مُصطلَح (الذَّرَّة) الذي خضَعَ إلى مفاهيمَ عديدة قبل أن يستقرَّ على مفهوم نهائيٍّ له خاضعٍ لتصوُّر أكثر تكامُلًا ممَّا كان عليه. كُلُّ هذا يُفضي بنا إلى التسليم بتطوُّر المُصطلَحات في الاستعمال التاريخيِّ لها.

٣-٢- متى يُعَدّ المُصطلَحُ مُصطلَحًا؟

والمُصطلَحُ – كما أشرنا – لا يظهر ناضجًا مُكتمِلًا – شأنه شأن العِلْم – وإنَّما يَمُرُّ بمرحلة يُمكِنُ أن تُسمَّى بالمرحلة الجنينيَّة للمُصطلَح تُوازي المرحلةَ الجنينيَّة للعِلْم، يَظَلُّ المُصطلَحُ في أثناء هذه المرحلة مُتخبِّطًا لم تكتمل صورتُهُ ولم يَظهَر بمفهومه الناضج بعدُ؛ ما أحدَثَ جدلًا وتساؤلًا: هل يُعتبَرُ المُصطلَحُ في هذه المرحلة – مرحلة ما قبل ظهور العِلْم – مُصطلَحًا، أم يُعَدُّ من قبيل التطوُّر الدلاليِّ للَّفْظ الذي لا يرتقي به إلى أن يكون مُصطلَحًا ولا يكون مُصطلَحًا إلَّا بظهور العِلْم؟

- ذهب فريقٌ إلى القول بأنَّ الألفاظ ذات الدلالة الاصطلاحيَّة لا تُعَدُّ مُصطلَحات إلَّا مع ظهور العِلْم وليس قبل ذلك؛ فلا يُعَدُّ بهذا أيُّ لفظ مُصطلَحًا نَحْويًّا – مَثَلًا – إلَّا مع ظهور كتاب سيبويه.
- وذهَبَ فريقٌ آخَرُ إلى أنَّ الألفاظ ذات الدلالة الاصطلاحيَّة تُعَدُّ مُصطلَحات من قبل ظهور العِلْم؛ حتَّى لا يضيعَ من بين أيدينا تركةٌ ضخمةٌ منَ المُصطلَحات. والأخير وإن كان مُمكِنًا لكنَّه أصعبُ تحقُّقًا منَ الأوَّل، غير أنَّ الحسم في مسألة كهذه لا يرجع إلى الصعوبة واليُسْر؛ إنَّما يَرجِعُ إلى مبدأ حُجِّيَّة دلالة اللَّفْظ لا إلى مبدأ الحفاظ على التراث المُصطلَحيِّ في مرحلة ما قبل ظهور العِلْم؛ فالقائل بحُجِّيَّة اللَّفْظ في كونه مُصطلَحًا في هذه المرحلة سيكون عليه أن يُثبتَ عَلاقةً رابطةً بين اللَّفْظ بمدلوله العامِّ القديم وبين مفاهيم العِلْم بما آلَتْ إليه من خصوصيَّة، وإن لم يتحقَّقْ له إثباتُ ذلك؛ تَظَلُّ دلالة المُصطلَح في ما قبل ظهور العِلْم دلالةً عامَّةً لا تُدخِلُ ألفاظَها في نطاق المُصطلَحات.

٣-٣- في رَصْد التطوُّر التاريخيِّ للمُصطلَحات:

وإذا كُنَّا قد سلَّمنا بتطوُّر المُصطلَحات على مُستوى الاستعمال التاريخيِّ تعاقُبًا مع تطوُّر العلوم، فكيف يُمكِنُ لنا أن نَرصُدَ ذلك التطوُّر عبر المراحل التاريخيَّة المُختلفة؟

٣-٣-١- إجراءات رصد التطوُّر:

يكاد يكون هذا النَّوْعُ من الرصد صعبَ التحقُّق إن لم يكن مُستحيلًا؛ ذلك أنَّ عمليَّة نجاح رصد كهذا علميًّا تحتاجُ إلى مجموعة منَ الإجراءات تتمثَّلُ في:

- وجود مُدوَّنة نصِّيَّة تشمل جميع ما أُلِّفَ وكُتِبَ خلال المرحلة الزمنيَّة المُراد رصدُ التطوُّر فيها.
- الاحتكام إلى هذه المُدوَّنة في جميع النصوص التي استُعمِل فيها المُصطلَح أيًّا كان استعمالُه وبأيِّ مفهوم ورد.
- تصنيف المُصطلَح بحسَب المفهوم الذي اكتسَبَهُ داخلَ كُلِّ معرفة.
- البحث في مدى توسُّع تطوُّر المُصطلَح؛ هل تطوَّرَ المُصطلَحُ داخل مجاله فقط أم أنَّه قد تطوَّر خارج مجاله كذلك.

٣-٣-٢- أهمِّيَّة رصد التطوُّر:

وتأتي عمليَّة رصد التطوُّر التاريخيِّ للمُصطلَحات لها أهمِّيَّةٌ كبيرةٌ، يُمكِنُ أن نُوجِزَها في ما يأتي:

- رصد تطوُّر مُصطلَحات أيِّ أمَّة هو رصدٌ للتطوُّر الفكريِّ والعلميِّ في الأمَّة في المقام الأوَّل.
- توقُّف فَهْم أيِّ عِلْم منَ العلوم على فَهْم مُصطلَحاته؛ فالمُصطلَحاتُ هي التي تعكس العِلْمَ، وليس العِلْمُ هو من يعكس المُصطلَحات.
- رصد تطوُّر المُصطلَحات يسمح بتكوين تصوُّر مُناسِب عن الخريطة العلميَّة والمعرفيَّة للأمَّة إجمالًا.

٣-٣-٣- صعوبات رصد التطوُّر:

ولا شَكَّ أنَّ إجراءات كهذه ستكون صعبة التحقُّق بالفعل؛ فإنَّ الباحث لا

يستطيع أن يتجاوز الإجراءَ الأوَّل منها فضلًا عن باقي الإجراءات؛ لمجموعةٍ منَ الأسباب، نذكر منها:

- o عدم توافُر جميع النصوص العربيَّة تحت أيدينا؛ فأكثرُها ما بين مسروقٍ أو ضائع.
- o الاحتفاظ بكَمٍّ كبيرٍ منَ المخطوطات العربيَّة تحت أيدينا دون خروج بتحقيق لها.
- o توافُر قدرٍ لا بأس به منَ النصوص مُحقَّقةً تحقيقًا ضعيفًا لا يُمكِنُ الاعتمادُ عليه.
- o صعوبة تخريج كُلِّ الإحالات والاقتباسات داخل نصوص المُدوَّنة، وبخاصَّةٍ مع تباعُد تاريخ هذه النصوص.

٣-٣-٤- خروجًا منَ الإشكاليَّة..:

وإذا كان الأمرُ بهذه الصعوبة التي رأينا، فإنَّ ما لا يُدرَكُ كُلُّه لا يُترَكُ جُلُّه، لذلك فإنَّنا نقترحُ الإجراءات الآتية حلًّا لإشكاليَّة صعوبة رصد التطوُّر التاريخيِّ للمُصطلَحات:

- o أن تكون البحوثُ في هذا الميدان في نطاق المُقارَبة التاريخيَّة لا الحَصْر والاستقصاء.
- o أن تكون البحوثُ في مجالٍ مُعيَّنٍ يستطيعُ الباحثُ التحكُّمَ فيه بحيث يكون له بدايةٌ ونهاية؛ كأن يكون على مستوى فترةٍ زمنيَّة، أو على مستوى مُؤلَّفات رائدٍ من روَّاد العلم، أو تقاطُعًا بين هذا وذاك.
- o أن يكون البحثُ في نَسَق بحوثٍ أخرى تدور في المجال نَفْسِه؛ بحيث يتكوَّن لدينا في نهاية الأمر حلقةٌ مُتكاملة من البحوث تخدمُ حقلًا معرفيًّا مُعيَّنًا.
- o في حال كان نطاقُ البحث واسعًا، أن يُوزَّعَ البحثُ على فريق عملٍ يعمل بمعايير مُوحَّدة.
- o أن يكون العملُ تحت إشرافِ مُؤسَّسيٍّ يتبنَّى وَحدةَ المنهجِ والمعاييرِ والتنسيقَ بين فِرَق العمل المُختلفة.

٤- التطوُّر التاريخيُّ لمُصطلَح (النَّحْو)

في هذا المبحث ندرس التطوُّر التاريخيَّ لمُصطلَح (النَّحْو) في إطارَيْن؛ أوَّلُهما: الإطار النظريُّ العامُّ، وفيه نضع أشكالًا مُقترَحةً للمُقارَبة التاريخيَّة التي يُمكِنُ أن تُتَّخَذ في دراسة التطوُّر التاريخيِّ لمُصطلَح (النَّحْو)، والمصادر التي يُمكِنُ أن تُمثِّل حدودَ هذه المُقارَبة.

وثانيهما: الإطار التطبيقيُّ، وفيه نُخصِّصُ شكلًا من أشكال المُقارَبة المُقترَحة إسقاطًا على مُصطلَح (النَّحْو) في تتبُّع تطوُّره.

٤-١- الإطار النظريُّ:

٤-١-١- المصادر:

في تتبُّع مُصطلَح (النَّحْو) على مستوى الاستعمال التاريخيِّ، نحتاجُ أوَّلًا إلى تحديد المصادر التي يُمكِنُ أن تُشكِّل حدودَ البحث عامَّةً، ويُمكِنُ أن تتشكَّل مُدوَّنة البحث من بينها:

- o أُمَّهاتُ كتب علم النَّحْو بدايةً من كتاب سيبويه وانتهاءً بكتب النَّحْو المُعاصِرة.
- o المعاجم العربيَّة القديمة والحديثة، العامَّة والمُتخصِّصة.
- o كتب التراجم والأعلام التي ترجمَتْ لروَّاد علْم النَّحْو.

٤-١-٢- أشكال المُقارَبة:

أمَّا الأشكالُ التي يُمكِنُ أن تقوم عليه المُقارَبةُ في دارسة تتتبَّعُ تطوُّرَ مُصطلَح (النَّحْو)؛ فيُمكِنُ أن نُحدِّدَها في ما يأتي:

- o البحثُ في نطاقٍ زمنيٍّ مُحدَّدٍ اتَّسَعَ أم ضاق: كتقسيم علم النَّحْو إلى ثلاث مراحل، ودراسة كُلٍّ منها على حدة.
- o البحث في نطاقٍ جغرافيٍّ مُحدَّدٍ اتَّسَعَ أم ضاق: كاتِّخاذ المدرسة البصريَّة أو الكوفيَّة مجالًا للبحث، أو اتِّخاذ المدرسة البصريَّة والكوفيَّة في مقابل ما تلاهما من مدارس.
- o البحث في نطاقٍ نصِّيٍّ مُحدَّدٍ اتَّسَعَ أم ضاق: كاتِّخاذ مُؤلَّفات عَلَمٍ منَ رُوَّاد العِلْم أو اتِّخاذ المعاجم العربيَّة مُدوَّنةً للبحث، أو اتِّخاذ مُؤلَّفٍ واحدٍ من مُؤلَّفات هذا الرائد أو مُعجَمٍ واحدٍ مُدوَّنةً للبحث.
- o البحث تقاطُعًا بين نطاقٍ زمنيٍّ وجغرافيٍّ: كاتِّخاذ جيلٍ من أجيال إحدى المدارس النَّحْويَّة مجالًا للبحث.
- o البحث تقاطُعًا بين نطاقٍ نَصِّيٍّ وزمنيٍّ: كأن يختصَّ الدارسُ بدراسة تطوُّر مُصطلَح النَّحْو في المعاجم العربيَّة على مدى فترةٍ زمنيَّةٍ يُحدِّدُها.

٤-٢- الإطار التطبيقيُّ:

بناءً على ما سبق من تخطيط نظريٍّ، نَشرُعُ في هذا المبحث في مُحاوَلة لرصد التطوُّر التاريخيِّ لمُصطلَح (النَّحْو) عبر الآليَّة الأخيرة (البحث تقاطُعًا بين نطاقٍ نصِّيٍّ وزمنيٍّ)، بتحديد المُعجَم العربيِّ مجالًا نصِّيًّا، وَفْقَ منهجيَّةٍ مُحدَّدةٍ هي تقسيمُ المعاجم أوَّلًا إلى ثلاث مراحل؛ قديمة، وسيطة، حديثة، ثُمَّ اختيارُ مُعجَمٍ

مُمثِّل عن كُلِّ مرحلة، خروجًا بالتطوُّر الذي طرأ على المفهوم منذ القديم حتَّى الحديث.

وبما أنَّ البداية الحقيقيَّة للمعاجم اللُّغويَّة كانت على يد الخليل بن أحمد الفراهيديِّ (١٧٥ ه) بتأليفه كتاب "العَين"، فإنَّ التقسيم الزمنيَّ للمُعجَم العربيِّ إلى قديم ووسيط وحديث يُمكِنُ أن يكون كالآتي:

o المرحلة القديمة: من القرن الثاني الهجريِّ (الثامن الميلاديِّ) حتَّى القرن الخامس الهجريِّ (الحادي عشر الميلاديِّ). وتَضُمُّ طائفةً منَ المعاجم مثل:
- (العين)، للخليل بن أحمد ١٧٥ ه.
- (الجيم)، للشيباني ٢١٣ ه.
- (جمهرة اللُّغة)، لابن دريد ٣٢١ ه.
- (تهذيب اللُّغة)، للأزهري ٣٧٠ ه.
- (المُحيط)، للصاحب بن عبَّاد ٣٨٥ ه.
- (تاج اللُّغة وصِحاح العربيَّة)، للجوهري ٣٩٣ ه.
- (البارع)، للقالي ٣٥٦ ه.
- (المقاييس) و(المُجمَل)، لابن فارس ٣٩٥ ه.
- (المُحكَم والمُحيط الأعظم)، لابن سِيده ٤٥٨ ه.

o المرحلة الوسيطة: من القرن السادس الهجريِّ (الثاني عشر الميلاديِّ) حتَّى القرن الثاني عشر الهجريِّ (الثامن عشر الميلاديِّ)، وتَضُمُّ طائفةً منَ المعاجم مثل:
- (أساس البلاغة)، للزمخشري ٥٣٨ ه.
- (لسان العرب)، لابن منظور ٧١١ ه.
- (القاموس المُحيط)، للفيروزابادي ٧١٨ ه.
- (المصباح المُنير)، للفيُّومي ٧٧٠ ه.
- (التعريفات)، للجرجاني ٨١٦ ه.
- (تاج العروس)، للزَّبيدي ١٠٢٥ ه.
- (كشَّاف اصطلاحات العلوم والفنون)، للتهانوي ١١٥٨ ه.

o المرحلة الحديثة: من القرن الثالث عشر الهجريِّ (التاسع عشر الميلاديِّ) حتَّى الآن، وتَضُمُّ معاجم مثل:
- (سِرّ الليال في القلب والإبدال ١٢٤٨ ه)، لأحمد فارس الشدياق.
- (مُحيط المُحيط ١٢٨٣ ه، وقُطر المُحيط)، لبطرس البستاني.
- (أقرب الموارد في فصح العربيَّة والشوارد ١٣٠٧ ه/ ١٨٨٩ م)، لسعيد الشرتوني.
- (مُعجَم الطالب في المأنوس من مَتْن اللُّغة العربيَّة والاصطلاحات العلميَّة والعصريَّة ١٣٢٥ ه/ ١٩٠٧م)، لجرجس همَّام الشويري.
- (المُنجِد ١٣٢٦ ه/ ١٩٠٨ م)، للأب لويس معلوف.
- (البستان ١٣٤٨ ه/ ١٩٣٠ م)، لعبد الله البستاني.
- (المُعجَم الوسيط ١٣٨٠ ه/ ١٩٦٠ م)، عن مَجمَع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة.
- المعاجم المُتخصِّصة الصادرة عن مَجمَع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة.

٤-٢-١- مُصطلَح (النَّحْو) في المعاجم القديمة:

وقد اختَرْنا لتمثيل هذه المرحلة مُعجَمًا من معاجم القرن الثاني الهجريِّ، هو كتاب (العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ ه).

- يقول الخليل في مادَّة (ن ح و):

"النَّحْوُ: القَصْدُ نَحْوَ الشيء. نحَوْتُ نَحْوَهُ؛ أي: قصدتُ [قَصْدَهُ]. وبلَغَنا أنَّ أبا الأسود وضَعَ وجوهَ العربيَّة، فقال [للناس]: انحُوا نَحْوَ هذا فسُمِّيَ نَحْوًا. ويُجمَعُ على الأنحاء. قال:

وللكلام وجوهٌ في تصرُّفِه والنَّحْوُ فيه لأهلِ الرَّأْيِ أنحاءُ"

- واستخدَمَهُ الخليل في أكثر من موضع بمعناه الاصطلاحيِّ كذلك؛

o فيقول في مادَّة (ن ع ت): "وأهلُ النَّحْو يقولون: النعتُ خَلَفٌ منَ الاسم يقوم مقامَه".

o ويقول في مادَّة (ع س و): "وأهلُ النَّحْو يقولون هو فعل ناقصٌ [يقصد عسى] ونقصانه أنَّك لا تقول منه فَعَلَ يَفعُلُ".

o وجاء في باب اللَّفيف منَ العين: "الياء خِلْقَتُها الكسرةُ فيستقبحون الواوَ بين كسرتَيْن، والواو خِلْقَتُها منَ الضَّمَّة فيستقبحون التقاءَ كسرة وضَمَّة، ولا تجدها في كلام العرب في أصل البناء سوى النَّحْو".

o وفي مادَّة (خ ز ن): "النَّصْبُ خِزانةُ النَّحْو، والبصرةُ خِزانةُ العرب؛ أي: مُعوَّلُهم عليه أكثرُ من سائره".

o وفي مادَّة (خ ط ف): ".. فاعتمَدَ صوتُ واو الأخ على فتحة فصارَ معها ألفًا ليِّنةً (أخا) وكذلك (أبا) كألف رمى وغزا ونحوهما، ثُمَّ ألقَوُا الألف استخفافًا لكثرة استعمالهم إيَّاها وبَقِيَت الخاء على حركتها فجرَتْ على وجوه النَّحْو لقِصَر الاسم".

o وفي مادَّة (س ل ق): "والسليقيُّ منَ الكلام: ما لا يُتعاهَدُ إعرابُهُ وهو في ذلك فصيحٌ بليغٌ في السَّمْع عَثُورٌ في النَّحْو".

o وفي مادَّة (ج ن س): "الجِنْسُ: كُلُّ ضَرْب منَ الشيء والناس والطَّيْر، وحدودُ النَّحْو والعَروض والأشياء، ويُجمَعُ على أجناس".

o وفي مادَّة (ش ي ء): "الشيءُ واحدُ الأشياء، والعربُ لا تَضربُ أشياءَ، وينبغي أن يكون مصروفًا لأنَّه على حَدِّ فَعْلاء وأفياء، واختلَفَ فيه أهلُ النَّحْو..".

o وفي باب اللَّفيف منَ الدال: "وفلانٌ آدى للأمانة من فلان، غير أنَّ العامَّة قد لهجوا بالخطأ يقولون: فلانٌ أدَّى للأمانة. وهذا في النَّحْو غيرُ جائز".

٤-٢-٢- مُصطلَح (النَّحْو) في المعاجم الوسيطة:

وقد اخترنا لتمثيل هذه المرحلة مُعجَمًا من معاجم القرن التاسع الهجريِّ، هو (القاموس المُحيط) لصاحبه الفيروزابادي (٨١٧ه).

- يقول الفيروزابادي في مادَّة (ن ح و):

"النَّحْوُ: الطريقُ، والجهةُ، ج: أنحاءٌ ونُحُوٌّ، والقَصْدُ، يكونُ ظرفًا واسمًا، ومنه: نَحْوُ العربيَّة، وجَمْعُهُ: نُحُوٌّ كعُتُلٍّ، ونُحِيَّةٌ كدُلُوٍّ ودُلِيَّة.

نحاهُ يَنْحُوه ويَنحاه: قصَدَهُ، كانتحاه. ورجلٌ ناحٍ من نُحاة: نَحْوِيٌّ".

- واستخدَمَ الفيروزابادي (النَّحْو) ومُشتقَّاته في أكثر من موضع بالمعنى الاصطلاحيِّ كذلك؛

o جاء في تعريف (الحَرْف): "... وعند النُّحاة: ما جاء لمعنًى ليس باسم ولا فعل وما سواه منَ الحدود فاسدٌ".

o وفي تعريف (الصفة): "وأمَّا النُّحاةُ؛ فإنَّما يُريدون بها النَّعْتَ وهو اسمُ الفاعل والمفعول أو ما يَرجعُ إليهما من طريق المعنى كمِثْل وشِبْه".

o وفي تعريف (الأَوَّل): "قال النُّحاةُ: أوائلُ بالهمز أصلُهُ أواولُ، لكن لمَّا اكتنفت الألفَ واوان ووليت الأخيرةُ الطرفَ فضَعُفَتْ وكانت الجملةُ جمعًا والجمعُ مُستثقَلٌ؛ قُلِبَت الأخيرةُ همزةً".

o وفي مادَّة (ب ه م): "والأسماءُ المُبهَمةُ: أسماءُ الإشارات عند النُّحاة".

- كما استعمَلَ (النَّحْو) لفظًا كذلك في سياقات مُتعدِّدة منَ المُعجَم، بمعنى: مِثْل، وشِبْه، وما إلى ذلك.

٤-٢-٣- مُصطلَح (النَّحْو) في المعاجم الحديثة:

وقد اختَرْنا لتمثيل هذه المرحلة مُعجَمًا من معاجم القرن الرابع عشر الهجريِّ، هو (المُعجَم الوسيط) الصادر عن مَجمَع اللُّغة العربيَّة في طبعته الأولى عام ١٩٦٠م (١٣٨٠ه تقريبًا).

- جاء في المُعجَم الوسيط في مادَّة (ن ح و):

"(النَّحْوُ): القصدُ. يُقالُ نَحَوْتُ نَحْوَهُ: قصدتُ قَصْدَهُ.

و ـــــــــ الطريقُ. و ـــــــــ الجهةُ. و ـــــــــ المِثْلُ. و ـــــــــ المِقدارُ. و ـــــــــ النَّوْعُ. (ج) أنحاءٌ، ونُحُوٌّ.

و ـــــــــ عِلْمٌ يُعرَفُ به أحوالُ أواخر الكلام إعرابًا وبناءً.

(النَّحْوِيُّ): العالمُ بالنَّحْو. (ج) نَحْوِيُّون".

- وقد استخدَمَ الوسيط (النَّحْو) مُصطلَحًا كذلك في التعريف في أكثر من موضع بالمُعجَم باعتباره وَسْمًا للعِلْم، وخصَّصَ له الوسم (في النَّحْو) بين المُعرَّف والتعريف.

- إضافةً إلى استخدامه (النَّحْو) لفظًا في سياقات لُغويَّة في المُعجَم وهي كثيرةٌ، بمعنى: مِثْل، وشِبْه، وما إلى ذلك.

٤-٢-٤- نتائج الاستقراء في المراحل الثلاثة:

بعد عرض مُصطلَح (النَّحْو) في المعاجم الثلاثة؛ كتاب العَيْن، والقاموس المحيط، والمعجم الوسيط؛ المُمثِّلة على الترتيب عن المراحل الزمنيَّة الثلاثة؛ القديمة، والوسيطة، والحديثة، واستقراء السياقات التي وردَتْ فيها؛ يُمكِنُ أن نَخرُج بالآتي:

o استعمال مُصطلَح (النَّحْو) كان استعمالًا سابقًا لظهور كتاب سيبويه؛ وتفسيرُ ذلك أنَّ كتاب سيبويه ليس بدايةَ عِلْم النَّحْو، وإنَّما هو بدايةُ ما كُتِبَ من عِلْم النَّحْو؛ فلا يُوجِبُ ذلك أن يكون ظهورُ المُصطلَح مع ظهور أوَّل نَصّ.

o مُصطلَح (النَّحْو) في كتاب العين للخليل مُصطلَحٌ واسعٌ يَشمَلُ أبوابَ العربيَّة من تركيب وصَرْف واشتقاق.

o استعمال الخليل لمُصطلَح (النَّحْو) في بعض المواضع بالمفهوم التركيبيِّ – كمثال مادَّة (ن ع ت) – لا يعني حَصْرَه في علم وظائف الكلمات في التركيب وما يَلحَقُ أواخرَها من حركات وسكنات، وإنَّما هو مُندرِجٌ كذلك تحت المفهوم الشامل لعلوم العربيَّة الذي منه فرعُ التركيب، بدليل وروده كذلك في سياق صريحٍ كالمثال الذي أوردَناه في مادَّة (ش ي ء).

o استعمال الفيروزابادي مُصطلَح

(النَّحْو) جاء في مفهومَيْه التركيبيِّ والصَّرفيِّ، لكنَّه غلَبَ في التركيب؛ ما يعني أنَّه استخدَمَ المُصطلَح على مفهومَيْن؛ مفهوم شامل للتركيب والصرف معًا – وهو ما يأتي في مجال صرفيٍّ – ومفهومٍ محصورٍ في علم وظائف الكلمات في التركيب وما يَلحَقُ أواخرَها.

- استعمالُ المعجم الوسيط لمُصطلَح (النَّحْو) جاء محصورًا في ما استقرَّ عليه المفهوم في العصر الحديث، من أنَّه العِلْم الذي يُعرَفُ به أحوالُ أواخر الكلام من إعراب وبناء.
- استعمالُ لفظ (النَّحْو) في سياقه اللُّغويِّ بالمعاني الشارحة (مِثْل، شِبْه، ...) هو استعمالٌ أسلوبيٌّ مُستخدَمٌ منذ القديم.

٥- المصادر والمراجع

ابن جنِّي: الخصائص. ت: مُحمَّد علي النجَّار. ط٢، القاهرة: دار الكتب المصريَّة، ١٩٥٢.

ابن منظور: لسان العرب. ط١، القاهرة: المطبعة الأميريَّة ببولاق، ١٨٨٣.

إقبال، أحمد الشرقاوي: معجم المعاجم العربية. ط١، بيروت: دار الغرب الإسلاميِّ، ١٩٨٧.

البكري، محمد أحمد: "تجربة المعجم العربي المعاصر؛ الوسيط نموذجًا". بحث غير منشور للباحث، معهد الدوحة للدراسات العليا، يناير ٢٠١٦.

البوشيخي، عز الدين: محاضرات علم المُصطلَح والصناعة المُصطلَحيَّة. الدوحة: معهد الدوحة للدراسات العليا: مارس – يونيو ٢٠١٦.

حمزة، حسن: "الباب الأول في الأصول النظرية لتأريخ تطور المصطلح النحوي العربي؛ في تطور المصطلح النحوي العربي". مصر: مجلة علوم اللغة، مج ٩، ع ١، ٢٠٠٦.

الخضري، محمد بن مصطفى: حاشية الخضري على شرح ابن عَقيل على ألفية ابن مالك. تصحيح وضبط: يوسف الشيخ محمد البقاعي. ط١، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨.

عطا الله، إلياس: المصطلحات المستعملة في كتب تدريس قواعد اللغة العربية، وواضعوها. ط١، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٧.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين. تحقيق: مهدي المخزومي؛ إبراهيم السامرائي. ط١، بغداد: وزارة الإعلام، ١٩٨٨.

الفيروزابادي: القاموس المحيط. ط٨، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

القوزي، عوض حمد: المصطلح النحوي؛ نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري. ط١، الرياض: عمادة شؤون المكتبات جامعة الرياض، ١٩٨١.

مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط. ط٥، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١١.